القانون

وأثره في الحديث

إن من يزور « روما » فيترك حي « الكورسو » ويتجه سطوقاً نحو « التيبر » مخترقاً ذلك التيه المؤلف من الأزقة الضيقة المتمة بفتيان عاصمة إيطاليا القديمة وشيوخها ، يعمه ضربٌ من الغبطة في تتبع تلك السجلات الصخرية التي خلفتها الأجيال المتعاقبة من الرومان ، والذين يجوس اليوم أخلافهم خلال ديارهم . فاذا استدار بعد ذلك دورة ، وقف أمام حشرجة من الأعمدة الأخاذة ، برغم تهدمها ، أعمدة الدوح العظيم الذي شيد عند ما عرف ذلك المكان باسم « كامبوس مارتيوس » وكان مسرح الهيكل الذي أزجاه الامبراطور « هدريانوس » .

بين الأعمدة جدران شيدت من كتل عظيمة من الصخر « التيبورتي » نقضت من بناء امبراطوري آخر ، وبني هنالك ليكون حصناً غليظاً الحجرة عظيم الجنبات ، في تلك الأيام التي كان يهب فيها أسر من مثل « أورسيني » أو « كولونا » الى السيف ، اذا وقع التناحر على انتخاب « ليون » أو « غريغوري » لمقام البابوية .

هنالك قد تقع على ملف رقيم الفن من عصر النهضة ، سنح في حياة « برامنتي » أو « ميكلنجيلو » . بينا ترى هنا أو هناك شيئاً من ملاط الرص فوق بناء « الأتو مسنتو » وقد تسلخ وانقشر بما صادف من عنف رجال « غاريبالدي » ذوي القمصان الحمر ، أو رجال « موسوليني » ذوي القمصان السود .

ثم اعبر شارعاً مزدحماً وانعطف الى زقاق يفصل صرحين من الصروح المعروف أمرها في القصص ، فانك تقع على احتفال « ذشي » أقيم أمام قبر « فتريو إمانويل » في كنيسة « سانتا ماريا روتوندا » ؟ وكانت من قبل مدفناً تكريمياً أقامه « هدريانوس » تخليداً لذكرى الفرق الرومانية ، التي غزت كل آلهة الشرق .

عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، استمر الاختراف ما شيد الاسلاف ، وحوّروا عمائرهم مقتفين أثرهم ، فحفظوا بها بعض الاحيان كامنة كما هي ، وقوّضوها حيناً آخر ، وأقاموا أنقاضها مباني حديثة . هذه الحياة متدفقة ، جياشة ، تزدحم بالوان الوجود والامل والفشل والموت ، في ظل هاجل أو سيد أو بابا أو ملك أو أفاق مستبد ، سواء في ذلك مظاهر نشأتها الحديثة ، أو مظاهر نضجها على ما انقضى من الاعصار .

وفي الحق أن روما مدينة خالدة . خالدة بقدمها ، في سورها وجدرانها الضخمة ، خالدة بعداتها ، في آمالها ومراميها ، وكأني بها رمز الانسانية التي اقتبلت تلك المدنية ، فهي صرحها ومركزها .

ذلك بأن تاريخ المدنية البشرية ، انما هو قصة تشابه ما رويناه ، جهدٌ يبذل وآثارٌ تقام ثم تتكيف وتضخم عن الاستمرار ، وتمضي في سبيل يلائم بينها وبين مجاري الحياة . رواية الجدران القديمة يهدمها الزمن ثم تتقوّض ، ثم تبنى ثانية في صور جديدة . ورواية الاقواس والعمدان تمتد بيها أيدي الهدم الخشنة الغليظة الى الآثار القديمة ، ورواية الكنائس التي يحوطها بالعناية المؤمنون ، والقصور والدساكر تسوّى بالأرض لتمهد طريقاً ، ورواية النافورات التفريجية تلتئم في أبهاء القصور التي شيدها أمراء عصر النهضة ، والصورة الشيوعية تضج بها النوادي التي عمرها أشراف « روما » .

أما إذا كان أثر القديم في الحديث غير بين في جميع النواحي ، بيانه في مدينة الكرسي البابوي ، فانه من الحقائق الثابتة أن الآراء والمعتقدات والعادات والمثاليات التي ينطوي [illegible]

فيها إثارات وبقايا من الاشياء التي ورثت خلال العصور المتتالية ، صبت في قوالب جديدة لتلائم حاجات الزارع الاميركي ، والعامل الاوسترالي . ولو جلت جولة في نواحي العقل الحديث ، لانكشف لك عما فيه من تراكب العقائد وتراكبها طبقة على طبقة ، وقد تلقى ذلك مطرداً غير منقطع خلال الاحقاب المتطاولة ولاستبان لك ما فيه من أشتات الآراء المنجمعة من هنا ومن هنالك ، وقد حبكت معاً ثم شيدت بناء قام أساسه على قسط وافٍ من دواعي الانحلال والتضعضع ، وفي جدرانه عدد من الثغرات ، ولكن من ورائه قوة العقل تعمل على تدعيم ذلك الاساس وسد تلك الثغرات ، ليكون ذلك الهيكل في مجموعه قادراً على تلبية قوامر الحاجة ، والقيام بوظيفة الحي والسكن ، حتى تأتي القوة التي ترفعه درجة أخرى نحو الكمال .

فقد يعتقد الانسان في العصر الحاضر أن ذرّة الزئبق يمكن تحويلها الى ذرّة ذهب ،

وأن عيسى الناصري قد قام من بين الموتى وانه الآن جالس الى يمين الذات العلية ، ذات الله ، وأنه من الفخر أن يموت الانسان في ميدان الحرب دفاعاً من وطنه ، وأن كل المشاحنات التي تقوم بين الدول ينبغي أن تعالج وتفض في محكمة عالمية ، وان الاتحادات بأنواعها وبمختلف صورها يجب أن تحل وتلغى ، وان دنيا الحياة الانسانية ينبغي أن يفسح المجال فيها للديمقراطية حتى تظل سالمة آمنة . ومع كل هذا فان الانسان الحديث ليؤمن بهذه الأشياء ، وليس في نفسه غير خيال ضعيف من أصل نشوئها ومعانيها وقيمتها لحياته التي يحياها . خيال أشبه بما يقوم في نفس الطفل الروماني ، الذي يمرح بين الآثار المخلفة عن أسلافه الأولين .

* * *

ان من بواعث الابتهاج والغبطة أن نكشف القناع عن نواحي العقل الحديث وثناياه وشعابه المختفية في تضاعيف الجيل الحاضر ، وأن نفحص عن كل خيط من الخيوط التي تؤلف سداه ولحمته ، وأن نتعقب بداياته منذ أول ظهورها منسوجة على نول الزمان . ان ذلك لأبهج للنفس وأرخى للعقل من جولة في جنبات « روما » وإن ذلك لأكثر من باعث على الابتهاج والغبطة . إن له لوزناً كبيراً ، عند من يريد أن يتفهم حقيقة الحياة الحافة به ، ويفقه طبيعة قواها العقلية ، ويتبين ما يحتمل أن يندفق فيه تيارها من الاتجاهات ، ولعله يأخذ المجداف في يده ، فيمضر فيه .

إن الآراء لمن أبقى الأشياء التي تمخضت منها المدنية . والآراء التي تحوم اليوم في العقول الحديثة ، لها أصولها الممتدة إلى ماضٍ لا تعيه الذكريات . ومن طريق العقل يستطيع الانسان أن يصل نفسه بآباء عريقين في القدم . وان صلته بهم عن طريق العقل ، لأوثق حتى من صلته بهم عن طريق الاتصال الطبيعي والعلاقة السلالية . ويصدق هذا خاصة على أمريكا . فانها برغم ماضيها القريب هي جزء من المدنية الاوربية ، كروما نفسها . ومن أجل أن نفهم حقيقة العلم والدين والفن والمثاليات الأدبية في العالم الحديث ، ونقيمها ونقدرها حق قدرها ينبغي أن نستوعب عظائم ما وصل اليه الانسان في سالف عصوره ، تلك العظائم التي شيدت ذلك الصرح الفسيح ، الذي تطوف في أنحائه اليوم الروح الانسانية .

إن الحاجة الملحة في أن نحلل معتقدات الانسان ونتتبع بداياتها ، إنما ترجع الى حقيقة أن الآراء ليست كآلهة « أولمبوس » ، باقية أبدية ، ثابتة دائمة الشباب . وهذه الحقيقة على ما لها من بالغ القيمة والأثر ، قد أغفلها العديد الغالب من الباحثين . إنها ككل الأشياء البشرية ، تولد وتنمو وتنضج ، وقد تموت .

لأن له صفة الحياة ، وكل ما هو حي ، لا بدَّ له من بيئة ينتعش فيها ويعيش ، كما ينبغي له أن يتكيَّف بها . والناس ينظرون في مجمل معتقداتهم ، نظرتهم إلى التلال التي يرفعون اليها أنظارهم ، فكأنها ثابتة غير متغيرة ، وكأن كل انحراف عنها ، انحراف لا يقرُّه الطبع ولا يجيزه العقل . أو أنهم يتخذونها كما يتخذون قطع النقد المسبوك من خالص الذهب ، فيعتقدون انها صالحة للتعامل بها في كل زمان ومكان . فالنصرانية والعلم والديمقراطية والملكية الخاصة ، على ما يتخيلون ، كانت ولم تزل ، وسوف تكون ولا تزول . فالانقلابات التي يعترفون بأنها واقعة في عالم الأشياء المادية ، لا يرى إلاَّ الأقلون منهم ، أن مثلها قد يقع في عالم الروح ، الذي هو أقل وضوحاً من عالم المادة . وليس ذلك لأنهُ من المتعذر ان ندرك ان الانسان قد اعتقد في عصر مَّا عكس ما يعتقد اليوم ، ولكن لأنه من المتعذر علينا أن ندرك انه اعتقد حقيقة بتلك المفارقات البعيدة عن العقل ، وانه آمن بها وأخلص لها ، إيماننا وإخلاصنا لما نعزُّ ونحترم من يقينياتنا ، وربما لم يبق عنده من الدلائل على صحتها إلاَّ النزر اليسير .

إن تتبع تاريخ هذه المعتقدات في نشوئها وتطورها التالي ، قد يولد فينا حسَّاً ندرك به شيئاً من التلاؤم الذي يقوم بين الآراء وقوالبها الأولى ، ونعرف به أن صحتها انما تستقرأ من بيئاتها التي نشأتها ، وان منفعتها تظل ، ما دامت تلك البيئة تغذيها وتربيها .

• • •

إذا [illegible] عقول الناس [illegible] نقوش تراكمت [illegible] المعتقد فوق [illegible] قشرة [illegible]
اللون ، كان من مهامّ العقل البشري الكبرى أن يفقه تاريخ حياة هذه المعتقدات ، ولماذا وجدت ، وهل من حقها أن توجد ، أم انه ينبغي أن تنبذ وتهمل ؟ ما هي تلك الموجات الفكرية العظيمة والآمال المتوثبة التي خلفت من ورائها تلك الرواسب المتراكمة ؟ وأيٌّ من الاشياء صيرت عندما حلها النقصان ، وما قيمة الأشياء التي خلفتها للعصر الحاضر ، وما هو الجديد الذي ينبغي للانسان أن يبحث عنه ، ليقوم بواجبه نحو تجديد الحضارة ؟ ذلك التجديد الذي لا ينقضي أمده ، ولا تنتهي دورته .

إذا انتهى المرء الى معرفة المواد التي تهيئها له الدنيا المحيطة به ، والمصادر النفسية الحالة فيه ومنها يستمد ، بقي عليه أن يستوعب الماضي ، ويعرف أثره في الحاضر ، ثم يتفهَّمه ويحكه ، حتى تكون له السيادة عليه .